

يهود البلاد العربية: قراءة في سفر الخروج الحديث

■ عز الدين عناية

أولاً: ذكرى أمس وواقع اليوم

شهدت أوضاع اليهود في البلاد العربية منذ مطلع القرن الفائت تبدلات جذرية، خلّفت آثاراً عميقة على مصير تلك الشريحة الاجتماعية، ولا يخفى ما للصراع العربي - الإسرائيلي من أثر مباشر على أتباع تلك الديانة؛ لكن المسألة تبدو أعمق من ذلك، فقد حصل تصدّع في بنية الاجتماع العربي، جراء تخلّف عميق ألمّ بالبلاد العربية، انعكس سلباً على تلك المجتمعات في احتضان مكوّناتها الدينية وشرائعها الاجتماعية؛ إذ تكشف وقائع المجتمعات العربية، التي هجّرت يهودها أو هجرها يهودها - بحسب القراءتين المتناقضتين الإسرائيلية والعربية - عن عجز عميق في توفير أجواء الاحتضان الاجتماعي، وعن قصور بيّن في تنزيل مبدأ التعارف المستند إلى المنظومة الخلقية الإسلامية في الواقع.

فبموجب الصراع العربي - الإسرائيلي المستفحل طيلة القرن الفائت والممتد حتى عصرنا الراهن، بات المخيال العربي

■ أستاذ تونسي بجامعة لاسابيينسا، روما - إيطاليا.



المعاصر تحت وطأة أشكال شتى من التداخل والتضارب تجاه اليهود واليهودية، ما جعل النظر إلى أوضاع تلك الجماعة يأتي مشوباً بتلك الأجواء؛ إذ ترافقت القطيعة التي حصلت بين الشعوب العربية وشرائعها الاجتماعية اليهودية، مع تردّد لافِت للنظر إلى أتباع تلك الديانة وإلى أصول تلك الديانة، استعاض فيها الفكر بأحكام مرتبكة، غالباً ما أتت مسكونة بالهاجس السياسي¹.

وفي مستهلّ حديثنا عن هذه المسألة سنتابع العوامل التي ولّدت ذلك الاضطراب. لقد مثّل عجز الدولة العثمانية عن تحقيق الاستيعاب السلس لملها وطوائفها منطلقَ اهتزاز تعايش الطوائف اليهودية مع المجتمعات الحاضرة، فكان أن هلّلت تلك الطوائف لمقدم الاستعمار الغربي إلى الحواضر العربية، على أمل أن يحصل تغيير في أوضاعها الاجتماعية الرثّة، بعد أن أرهقتها طويلاً مؤسسة أهل الذمة المتقدمة، التي تحوّلت من مؤسسة احتضان اجتماعي للآخر إلى مؤسسة جور وإذلال أضرت بصورة الإسلام السمحة، كما شاع العديد من المواقف تجاه اليهود تناقض قيم الدين الإسلامي تناقضاً فاضحاً، بما يفيد أن الثقافة السائدة ما عادت متأتية من قيم الدين بل من رؤى متلبّسة بالدين. في تلك الأجواء مثّلت وعود عالم الأنوار الغربي لليهودي العربي أملاً كبيراً للخروج من وضعية «الذمي» التي طالما أرهقتها، وقد تفاقم ذلك التناقض الاجتماعي لتلك الشرائح مع بنية الاجتماع العربي ببسط الاستعمار الغربي نفوذه على مجمل الأقطار العربية، بما زاد من تأزم البناء الاجتماعي ورسخ عجزه عن استيعاب شرائحه.

ففي مستوى أول شكل تولّي القنصليات الأجنبية مهام حماية اليهود في الدولة العثمانية، وما تبعه من منح امتيازات لفائدتهم، أمّلتها الدول

1 - حاولنا في مؤلفنا: «الاستهواد العربي في مقاربة التراث العبري» التعرض إلى العوائق التي حالت دون ظهور علم يهوديات في الثقافة العربية الحديثة. فبمقتضى الانخراط القسري لهذا المبحث، ضمن ثقافة المواجهة والصراع مع الصهيونية والدولة العبرية الناشئة، جاءت المقاربة العربية مصبوغة بالتضارب ومسكونة بالهاجس السياسي، الذي كان وقعه كبيراً على مصداقيتها وعلميتها.

الغربية، سبباً في إحداث شرح بين اليهود وباقي مكونات المجتمعات العربية؛ فضلاً عما تبعه - في مرحلة لاحقة - من إلحاق تلك الجماعة بالدول الاستعمارية، بعد منح أفرادها جنسية الدولة المستعمرة، فكان كلما احتدّ الصراع بين الدول الاستعمارية والدول الراضحة تحت نيرها؛ طلباً للاستقلال والحرية؛ ازداد تعمق الهوة بين الأكثرية المسلمة وجموع الذين هادوا، بسبب انخراط اليهود في تحالف مصيري جنب المستعمر، شايعوا فيه سياساته وأقروا له بالدور الفاعل في تحضير الأقليات وتحريرها.

**مثل عجز الدولة العثمانية
عن تحقيق الاستيعاب
السلس لمللها وطوائفها
منطلقاً اهتزاز تعايش
الطوائف اليهودية مع
المجتمعات الحاضنة، فكان
أن هلّت تلك الطوائف
لمقدم الاستعمار الغربي
إلى الحواضر العربية.**

وإن حصلت بعض المشاركات المحتشمة من جانب اليهود، بالانضمام إلى التنظيمات اليسارية والنقابية العربية زمن الحقبة الاستعمارية؛ فإنها لم تعبّر عن الثقل الأكبر داخل تلك التجمعات؛ بل أتت معبّرة عن خيارات ظرفية ومصالحية معزولة، على غرار ما حصل في المغرب، حيث كان مؤسس الحزب الشيوعي يهودياً، إلى جانب ضم الحزب في صفوفه خلال عام 1948 خمسمائة يهودي من جملة ستة آلاف من أعضائه، وفي تونس بمشاركة 46 يهودياً

ضمن الكوادر النقابية التونسية البالغ عددها 497 عضواً، ما بين الفترة الممتدة بين 1920 و 1956، وهو ما حصل أيضاً في مصر والعراق بشكل مشابه. ولكن في العموم لم يتحمّس اليهود إلى ثورات تلك البلدان وانتفاضاتها، عندما كانت تتطلّع إلى نيل حريتها واستقلالها، وهو ما جعلهم يرافقون المستعمر عند رحيله، ورغم ذلك لم تشهد البلدان نزوحاً تاماً لليهودها، وإن تقلّصت الأعداد إلى بضعة آلاف، سنأتي على أسبابها لاحقاً.

لقد ناهز عدد اليهود في البلاد العربية عشية تأسيس دولة إسرائيل 850 ألف نسمة؛ حيث بلغ العدد نحو 210 آلاف في المغرب الأقصى الواقع تحت الاحتلال الفرنسي، و 50 ألفاً في مراكش الإسبانية وطنجة، و 140 ألفاً



في الجزائر، و 110 آلاف في تونس، و 40 ألفاً في ليبيا، و 130 ألفاً في العراق، و 80 ألفاً في مصر، و 50 ألفاً في اليمن وعدن، ونحو 20 ألفاً في سورية ولبنان، بينما توزع نحو خمسة آلاف يهودي بين حزموت والبحرين والسودان. لكن تبقى أعداد أخرى من اليهود أغفلها الإحصاء تُقدّر ما بين 15 و 25 ألفاً، إلى جانب تجمع هام من اليهود استوطنوا فلسطين بلغت أعدادهم مع انتهاء فترة الانتداب البريطاني 625 ألفاً.

وإذا استثنيا أرض فلسطين المغتصبة، فإنه لم يبق في الوقت الحالي سوى 6160 نفرًا من يهود تلك البلدان، يتواجد السواد الأعظم منهم في المغرب (3050) وتونس (2200)، ويتوزع الباقي بين اليمن (350)، ومصر (150)، وسوريا (250)، والإمارات العربية المتحدة (70)، والجزائر (50)، والبحرين (30)، والكويت (10)، في وقت يبلغ فيه العدد الإجمالي لليهود في أرجاء العالم 13.428.300¹.

ثانياً: أثر التحولات التشريعية والاقتصادية

أسهم انتصاب الاستعمار والانتداب في أكثر من دولة عربية في انتعاش أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية، بعد رفع العديد من الضوابط التشريعية والسياسية، التي كانت تحدّ من أنشطتهم، ما جعلهم يتساوون قانونياً مع نظرائهم المسلمين في الفرص الاجتماعية والاقتصادية المتاحة، وينالون حظوة المستعمر وثقته مقابل ما أسدوه له من خدمات؛ ففي عدن مثلاً ألغى البريطانيون إبان عام 1893م ضريبة الجزية التي كانت تثقل كاهل اليهود، وذلك على إثر انتصاب سلطة الاحتلال في هذا البلد. وعلى غرار ذلك منحت سلطة الانتداب البريطاني في العراق امتيازات لليهود خوّلتهم بمقتضاها التحكم بمقاليده اقتصاد البلاد؛ حيث تولى اليهودي

1 - لمتابعة إضافية للتطورات الديمغرافية لليهود في العالم، يمكن الاطلاع على التقرير الإحصائي العام الصادر عن جامعة كونكتيكوت الأميركية خلال عام 2010م:

Arnold Dashefsky - Sergio Della Pergola - Ira Sheskin, *World Jewish Population 2010*, Berman Institute - North American Jewish Data Bank - University of Connecticut.

ساسون يحزقيان مهام وزارة المالية أثناء قيام حكومة الانتداب، كما سيطر اليهود على ما يربو على تسعين بالمائة من حركة الواردات وأعمال المقاولات العراقية، وشغل اليهود أيضاً خمسين بالمائة من حجم الوظائف الحكومية، وعمل شقاً واسعاً منهم في مجالات التدريس والطب والصيدلة والصحافة والمحاماة، ولعبوا دوراً بارزاً أيضاً في الحياة الفنية والأدبية¹. والجلي في هذا التحول الذي شهده اليهود - من وضع المستضعف إلى وضع المتنفذ - أنه لم يأت نتيجة تطوّر اجتماعي داخلي، بل حصل جراء المحاباة والإملاء من قبل القوى الاستعمارية، ما أوجع النعمة عليهم في الأوساط الاجتماعية. وقد تدعّم ما عُرف بـ«تساوي الفرص» بين الفئات الاجتماعية، في سائر

الدول العربية الواقعة تحت نير الاستعمار، بخطوات تشريعية أخرى، على غرار حثّهم على التجنّس، كما حصل في تونس والمغرب، أو إسداء الجنسية ألياً إليهم، كما حصل في الجزائر، ما حوّلهم إلى رعايا فرنسيين. فمنذ الرابع والعشرين من أكتوبر سنة 1870م أصدر وزير العدل الفرنسي إسحاق أدولف كريميو اليهودي الديانة حزمة من القرارات بشأن يهود الجزائر كان أبرزها إسداء الجنسية ألياً إليهم.

أسهم انتصاب الاستعمار والانتداب في دولة عربية في انتعاش أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية، بعد رفع العديد من الضوابط التشريعية والسياسية، التي كانت تحدّ من أنشطتهم.

وكان من آثار تلك التبدّلات التشريعية والاقتصادية على التجمعات اليهودية الأهلية - إلى جانب مزايا التمازج والاحتكاك بين يهود البلاد العربية وجاليات وافدة من أوروبا، متعلّمة ومتحضّرة، على غرار يهود ليفورنو، المسمّين بيهود «الفرانة» في الداريجة التونسية - أن ترقّت الأنظمة التعليمية وتكثفت الأنشطة الإعلامية والجمعياتية بينهم، التي أسهمت في خلق شخصية يهودية حديثة نقلتها من طور هامشي إلى دور فاعل؛ فقد

1 - صموئيل آتينجر: اليهود في البلدان الإسلامية (1850 - 1950م)، ترجمة: جمال أحمد الرفاعي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، مايو 1995، ص 31.



أسهم يهود «الفرانسة» الوافدون إلى تونس والجزائر إسهاماً فعلياً في بثّ روح عصرية بين يهود بلاد المغرب، بعد أن صاروا أنموذجاً محتذى، وقد تأتى ذلك الدور جراء المقام المتقدّم الذي مُنح لليهود في تلك المدينة التوسكانية عقب إعلان الليفورنينا الصادر في 1593، الذي خوّل بمقتضاه دوق توسكانا الأكبر فرديناند الأول (1587-1607م) للأجانب، ولليهود خصوصاً، حقوقاً ما كانت معهودة قبله.

ولعل الدور الأهم في مسيرة التحديث تلك كان للتحالف الإسرائيلي العالمي (*Alliance Israelite Universelle*) في تثوير النظام التعليمي اليهودي التقليدي، الذي كان يحاكي نظام الكتاتيب المنتشر في بلاد المغرب، بإنشائه مؤسسات تدريس بأنظمة تربوية غربية وعصرية تولي اهتماماً كبيراً للغات الأجنبية، في شتى أنحاء بلاد المغرب، لعبت دوراً بارزاً في فرنسة الشخصية اليهودية وإدخالها في الثقافة الغربية من الباب الواسع. فقبل حلول الاستعمار بالمغرب الأقصى بنصف قرن (1862م)، كانت مدارس الأليانس حاضرة بين الجالية اليهودية، ومع توالي السنين ازداد سحب البساط من التعليم التقليدي اليهودي.

وفي أعقاب تلك التبدلات التي طرأت على أوضاع مجمل يهود البلاد العربية، حصل تطور جديد داخل التجمعات اليهودية، لا سيّما الشبابية منها. غدا الوعي السياسي معلقاً بالحركة الصهيونية، مع احتداد الجدل في الأوساط الغربية عن سبل إيجاد وطن بديل لليهود، وما عاد الأمل مقتصرأ على التطلع المسيحاني الصوفي، لما مثّلته الصهيونية من سبيل فعلي لتحقيق مطامح التحرّر والانعقاد لجموع واسعة من اليهود. ما زاد من حدة الشرخ بين اليهود العرب وبين الواقع العربي، وقد وجد ذلك الشرخ تطوراً مع الأيام، دافعاً باتجاه ردود فعل عنيفة تجاه اليهود.

في تلك الأجواء مثلت زيارة الزعيم الصهيوني النمساوي المجري تيودور هرتزل لليبيا، في أول يناير من عام 1904، حدثاً بارزاً زاد من تسريع نسق الحراك السياسي داخل التجمعات اليهودية في شمال إفريقيا. حيث قام

الرجل بجولات واسعة في مدن طرابلس والزاوية وغريان وتغرنه، داعياً اليهود إلى تبني الخيار الصهيوني، باعتباره السبيل الأوحى لتحقيق حلمهم الأثير القائل بـ«العام القادم في أورشليم»¹.

يقول التقرير السنوي للإدارة العسكرية الإنجليزية بشأن الأوضاع في طرابلس، والعائد إلى عام 1945م: «تكتف الأنشطة اليهودية ويزداد الإفصاح عن تبني الخيار الصهيوني بروزاً، في وقت تعج فيه الأندية والمنظمات الشبابية بالأفكار الصهيونية؛ ففي غمرة هذه الأجواء تمَّ

استجلاب أدييات صهيونية من فلسطين، كما جرى اختيار مرشّحين للهجرة إلى فلسطين وتكوينهم في العمل الفلاحي. هذا علاوة على حضور وحدات يهودية وفدت من فلسطين إلى التراب الليبي، كانت سبباً آخر لحثّ الناس وتحريضهم. لقد زادت فظاظه اليهود - من معتقي الأفكار القومية - من حدة تدهور علاقات الصداقة والتسامح مع العرب»².

مثلت زيارة الزعيم الصهيوني النمساوي المجري تيودور هرتزل لليبيا، في أول يناير من عام 1904، حدثاً بارزاً زاد من تسريع نسق الجراك السياسي داخل التجمعات اليهودية في شمال إفريقيا.

ثالثاً: دور الصحافة والجمعيات

لقد لعب بعث الصحف وإنشاء الجمعيات دوراً بارزاً في بلورة الوعي السياسي، وفي نشر الإحساس بوحدة المصير بين يهود ليبيا؛ حيث صدرت مجموعة من الصحف، جلّها بالدارجة الطرابلسية ومدوّنة بأحرف عبرية، بلغ عددها 12 مطبوعة بين الفترة 1908 و1942م. وكانت أهمها صحيفة «الدردنيل»، وصحيفة «دغيل صهيون» (علم صهيون)، وصحيفة

1- انظر: مصطفى امحمد الشعباني: يهود ليبيا، الطبعة الأولى، دار الكلمة، طرابلس 2006م، ص 122.

2- British Military Administration Tripolitania, Annual Report by the Chief Administrator on the British Military Administration of Tripolitania, For the Period, 1st January 1945 to 31st December 1945, p.25.



«هاهيثوراروث» (اليقظة)، وصحيفة «البريد اليهودي». كما تشكل العديد من الجمعيات، مثل «النادي الصهيوني»، و«النادي المكابي»، و«نادي الشبيبة اليهودية الطرابلسية»، و«منتدى أليعازر بن يهوده»، و«نادي بن جويد»، و«جمعية أغودات تورا»، و«الجمعية النسائية ليهود إيطاليا»، و«الجمعية النسائية اليهودية»، و«جمعية المعمل النسائي اليهودي»¹.

وبالمثل في الجارة تونس تكاثرت المطبوعات اليهودية، حيث بُعثت مجلة «النجمة اليهودية» في مدينة سوسة سنة 1920م، التي تابعت الصدور حتى عام 1961، وكانت آخر منبر صحافي يهودي يصدر في شمال إفريقيا. كما صدرت بالفرنسية أيضاً صحيفة «Le Reveil Juif» - اليقظة اليهودية -، لسان التيار التصحيحي، التي لاقت قبولاً واسعاً بين اليهود خلال العشرينات والثلاثينات في بلدان الشمال الإفريقي، في حين صدرت بعد الحرب العالمية الثانية باللغة الفرنسية صحيفة «La Gazette d'Israel» - جريدة إسرائيل - وهي صحيفة ذات منحى صهيوني تحريضي ومباشر.

كذلك نشطت في القاهرة طيلة الثلاثينات والأربعينات صحيفة «الشمس» اليهودية، كما كانت «مجلة إسرائيل» التي صدرت ما بين 1919 و 1923 من بين أبرز المجلات اليهودية الناطقة بالفرنسية في مصر. وفي المغرب أيضاً كانت مجلة «L'avenir illustre» - المستقبل الواعد - التي أسسها يوناتان طورشر مندوب الاتحاد الصهيوني العالمي - في منتصف العشرينات من القرن الماضي - من أبرز المجلات ذات المنحى الصهيوني.

وبشكل عام، شهد التحمس للحس القومي اليهودي ولل فكر الصهيوني بين يهود تونس وليبيا تطوراً فاق نظيره في الجزائر، ويعود ذلك الخفوت في الجزائر إلى ربط اليهود مصيرهم بمصير الدولة الفرنسية، ما جعل الهيئة الحاخامية في جزيرة جربة في تونس تعرب عن تعاطفها مع الأفكار الصهيونية².

1 - مصطفى محمّد الشعباني: يهود ليبيا، الطبعة الأولى، دار الكلمة، طرابلس 2006م، ص 102 - 103.

2 - Filippo Petrucci, *Gli ebrei in Algeria e in Tunisia 1940-1943*, Giuntina, Firenze 2011, p. 44.

رابعاً: مصائر اليهود عشية الاستقلال

قبل حلول القرن التاسع عشر، كان مجمل يهود البلاد العربية ممن احتضنتهم الحضارة العربية الإسلامية، سواء أكان مأتاهم من الأندلس، أم ممن كان مقامهم في بلاد المغرب، أو في المشرق العربي، أو في أرض اليمن. فعلى سبيل المثال، كان يهود دمشق في بداية القرن التاسع عشر ثلاث طوائف: الربانيون والقراييون والسامرة¹، يتحدرون من أسر معظمها من أصول عربية، وما تبقى منها تعود في أصولها إلى مدن ومناطق عثمانية، أو نالت تسمياتها من الحرف التي عملت بها، والقليل منها كانت من أصول

سفاردية أو أشكنازية². وقد كان يهود البلاد العربية خلال العصر الحديث غالباً ما ينقسمون إلى ثلاثة أصناف: يهود أهليون من رعايا الممالك والدويلات العربية، ويهود مقيمون انتسبوا إلى جنسيات مختلفة عادة ما رعتهم القنصليات الأجنبية، وصنف ثالث قدم في مرحلة متأخرة مع المستعمر.

شهد التحمس للحس
القومي اليهودي وللكر
الصهيوني بين يهود تونس
وليبييا تطوراً فاق نظيره في
الجزائر، ويعود ذلك
الخفوت في الجزائر إلى
ربط اليهود مصيرهم
بمصير الدولة الفرنسية.

هذه الأصناف المتنوعة، وجدت نفسها تواجه قدراً متشابهاً مع أفول عصر الاستعمار، بعد أن تقلصت التمايزات بينها وغدت تواجه مصيراً مشتركاً؛ ففي الرواية الرائجة بين المؤرخين الصهاينة، تُصنّف دواعي خروج اليهود من البلاد العربية ضمن ثلاثة مبررات:

- صنف البلاد التي اعتمدت الإبادة المنظمة، مما أجبر اليهود على الفرار والبحث عن موضع آمن، كشأن العراق (عقب عملية الفرهود 1941م)، وسورية (عقب حوادث 1944م)، وليبيا (عقب حوادث طرابلس 1945م)، واليمن (عقب ما جرى في عدن 1947م).

1- يوسف نعيمة: يهود دمشق، دار المعرفة، دمشق، 1988م، ص 10.

2- المصدر السابق، ص 16.



- وصنف البلاد التي اعتمدت التجريد الناعم لليهود من ممتلكاتهم وثوراتهم، عبر الضغط والتخويف، مما أجبرهم على البحث عن فضاء آمن ومورد رزق آخر في الخارج، كشأن ما حصل في مصر والمغرب وتونس.
- وأخيراً البلاد التي أضفت على النضال التحريري بُعداً عرقياً دينياً مصبوغاً بطابع ديني إسلامي، واقتصر على المكوّن الأمازيغي العربي، ما جعل اليهود يُصنّفون في عداد الأطراف المعادية فيلجأون إلى مغادرة البلد رفقة فرنسا، وهو ما انفردت به الجزائر¹.

وبشكل عام كان يهود البلاد العربية بعد الاستقلال متنوعي المصائر متشابهي الحصائل. ولكن ينبغي ألا نغفل أيضاً أن خروج اليهود من البلاد العربية ما كان حادثاً دائماً جراً تشكّل ثقافة طاردة، أو بموجب آثار الصراع العربي - الإسرائيلي، كما قد يتبادر إلى الأذهان؛ بل حصل أيضاً في نطاق سعي جموع واسعة من تلك الشرائح اليهودية لتحسين أوضاعها المعيشية، خصوصاً من عامة اليهود وبسطائهم. فكانت الطائفة اليهودية التي تربطها أواصر دين وأوهام عرق جامع مع أبناء ملتها في الخارج أكثر قدرة على الإقدام لخوض غمار تلك التجربة. في وقت صارت فيه المجتمعات العربية - وبشكل عام - لا تتيح لأبنائها بيسر الفرض، وهو ما انعكس على الأقلية العبرية أيضاً. وفي نطاق معالجة مظاهر التناقضات الحاصلة بين اليهود والمجتمعات العربية سنقتصر ضمن هذا العرض على ثلاث عينات (الحالة الجزائرية، والحالة التونسية، والحالة الليبية):

* عشية استقلال الجزائر وجّهت «جبهة التحرير الوطني» في الجزائر نداءات عدة إلى الجالية اليهودية، كان أولها النداء الموجه إلى قادة الجالية، وذلك في الثالث عشر من أكتوبر 1956م، دعوتهم فيها إلى مناصرة الجبهة من أجل استقلال الجزائر، غير أن النداء لم يلق أذاناً مصغية. في

1 - Georges Bensoussan, *Juifs en Pays Arabes: le Grand Déracinement 1850-1975*, EdiTion Tallandier, France, 2012.

وقت كان فيه يهود الجزائر ويهود بلاد المغرب عامة - الذين مثّلوا الثقل الأكبر بين يهود البلاد العربية - قد سايروا الواقع الغربي وانساقوا في ثناياه، ما جعل العودة على أعقابهم أمراً غير مطروح، فضلاً عمّا دبّ من تخوف بينهم كون الدخول في مرحلة التخلص من آثار الاستعمار - *décolonisation* - ستعقبها عودة إلى وضعية الذمة مجدداً¹. ومما زاد من افتقاد لغة التفاهم بين حركة المجاهدين في الجزائر ويهود البلاد، تقلّص الفوارق بين اليهود الأهلين واليهود الوافدين مع فرنسا جراء عملية التمازج الحاصلة، بعد أن غدا جميعهم مواطنين فرنسيين.

فبعد أن تعلقّ يهود الجزائر وجوداً ومصيراً بفرنسا كان من الطبيعي أن يرتبط قدرهم بقدر المستعمر، ومنذ أن مُنِحوا حق المواطنة الفرنسية

**عشيّة استقلال الجزائر
وجّهت «جبهة التحرير
الوطني» في الجزائر
نداءات عدة إلى الجالية
اليهودية دعوتهم فيها إلى
مناصرة الجبهة من أجل
استقلال الجزائر غير أن
النداء لم يلق أذناً مصغية.**

بمقتضى «قرار أدولف كريميو» واشتداد معركة التحرير في الجزائر زادوا من ربط مصيرهم بمشيئة فرنسا، وهو ما جعل الجزائر مع حصول الاستقلال توشك أن تخلو من يهودها الأهلين والوافدين على حد سواء. حيث انطلقت بُعيد عقد اتفاقية إيفيان - مارس 1962م - هجرة يهودية مكثفة سبقت إعلان الاستقلال، ولم يبلغ شهر يونيو منتهاه من العام نفسه حتى كان قرابة 142 ألف يهودي قد غادروا الجزائر

باتجاه فرنسا، ففي أكتوبر من العام نفسه لم يبق في الجزائر سوى 25 ألف يهودي، ستة آلاف منهم في الجزائر العاصمة بشأن شدّ حقائبهم استعداداً للرحيل².

1- ذلك التوجه العام بين يهود بلاد المغرب، ينبغي ألا يخفي إسهام بعض العناصر في النضال ضد المستعمر، على غرار المناضل المغربي: أبراهام سرفاتي (1926 - 2010)، والمناضل التونسي جورج عدّة (1916 - 2008).

2- Aissa Chenouf, *Les Juifs d'Algerie 2000 ans d'existence*, Editions el-Maarifa, Alger 2004, pp. 144-146.



* أما في ليبيا الخارجة من ربة المستعمر، فقد كان التلاعب بالملف اليهودي إبان الحكم السنوسي ورقة ضغط في وجه المعارضة الداخلية والقوى الخارجية على حدّ سواء؛ فما كانت هناك سياسة واضحة أو تشريعات ضامنة تتعلّق باليهود، وفق ما يشير إليه المؤرخ الإيطالي رنزو دي فيلتشي، ما جعلهم عرضة للمدّ والجزر¹. فمنذ عام 1953 استشعر يهود ليبيا تضيق الخناق عليهم فكان إلغاء خدمات البريد مع إسرائيل، ثم تبعها غلق مكاتب وكالة العليا التي ترعى شؤون الهجرة نحو إسرائيل، وطرد ممثل الوكالة اليهودية مير شيلون. لتتصاعد التضيقات بمقاطعة إسرائيل مقاطعة تامة بحلول عام 1957، وما تبعها من تلويح بتسليط عقوبات تمتد إلى ثماني سنوات وغرامة مالية، على كل ليبي يثبت اتصاله بإسرائيل، أو بمؤسسات إسرائيلية، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة².

زاد من حدة تلك الأوضاع إبان حقبة الستينات ما ترافق مع اكتشاف البترول في ليبيا من تراجع لدور اليهود في التجارة الخارجية، بعد أن كانوا خلال العقد السابق يمسكون بما يضاها تسعين بالمائة من التجارة الخارجية. استُعيض عن وساطتهم بصادرات البترول التي ترعاها الدولة، ما جعل دورهم في المجتمع يتراجع بشكل ملحوظ³. بات اليهودي الليبي مدفوعاً دفعاً نحو خيار الهجرة، بعد فقدانه مجمل الامتيازات التي تحققت إبان فترة الاستعمار الإيطالي والتي تواصلت مع السنوات الأولى من استقلال ليبيا. وكما كانت هجرة يهود تونس لا تتمّ نحو إسرائيل مباشرة، بل باتجاه فرنسا أولاً، كانت هجرة يهود ليبيا أيضاً تتم عبر محطة إيطاليا ليلها مقصد إسرائيل.

1- Renzo De Felice, *Ebrei in un paese Arabo. Gli ebrei nella Libia contemporanea tra colonialismo, nazionalismo Arabo e Sionismo (1835-1970)*, Il Mulino, Bologna 1978, p.402.

Ibid., p.407.

Ibid., p.401.

-2

-3

* وعلى غرار الدول العربية الأخرى غادر تونس عشية إنشاء دولة إسرائيل أكثر من خمسة وعشرين ألف يهودي باتجاه إسرائيل، وقد كانت الهجرة في متناول العائلات المتوسطة الدخل، خصوصاً وأن الوكالة اليهودية للهجرة كانت تأخذ على عاتقها تكاليف السفر والإقامة الجديدة، وتتكفل بمصاريف العاليا - الهجرة - إلى إسرائيل¹.

ما كان قادة الحزب الدستوري ينظرون بعين الرضا إلى أنشطة الهجرة الصهيونية في تونس، لكن لم يحركوا ساكناً بقصد ثني اليهود عن مغادرة البلاد. تُورد جريدة «لابراس» الناطقة بالفرنسية، بتاريخ التاسع من سبتمبر 1954م حديثاً مع الحبيب بورقيبة، زعيم الحزب الدستوري حينئذ، سئل فيه عن موقف حكومته من هجرة اليهود التونسيين، فأجاب: «من مصلحتنا أن يبقى يهودنا في تونس؛ لكن كافة المواطنين أحرار في مغادرة البلاد وقتما شاءوا»، وقد كانت الهجرة إلى إسرائيل لا تنطلق مباشرة من تونس بل عبر فرنسا.

**في ليبيا الخارجة من
ربقة المستعمر، صار
التلاعب بالملف اليهودي
إبان الحكم السنوسي ورقة
ضغط في وجه المعارضة
الداخلية والقوى
الخارجية على حدّ سواء.**

ولم تشفع عمليات التحديث التشريعي المبكرة التي خاضتها تونس في ثني اليهود عن الهجرة، وبالمثل لم تُجد نفعاً كافة الإغراءات في شدّهم إلى مواطنهم. رغم أن السياسة الجديدة في تونس بعد الاستقلال قطعت مع التعامل معهم كطائفة على حدة وعاملتهم كمواطنين متساوين مع غيرهم من التونسيين. تواصل نزيه الهجرة، وتبيّن أن التحديث لم يخرج اليهود من حماية حكاهم إلى احتضان مجتمعاتهم.

في ظل تلك التحولات قلّة من اليهود أبت أن تلتحق بإسرائيل أو بفرنسا واختارت المكوث في تونس؛ لكن من اختاروا البقاء ما كانت دواعيهم متماثلة، كان البعض منهم من البرجوازية، وقد كانت لهم ممتلكات ومصانع

Paul Sebag, *Histoire des Juifs de Tunisie*, L'Harmatan, Paris 1991, p. 286.



وعقارات، دفعتهم للتشبث بتونس؛ وكان آخرون ينتمون إلى الطبقة الوسطى، وكانوا على يقين أن النظام الجديد سيسمح لهم بمتابعة أعمالهم في الظروف نفسها، وهناك فئة ثالثة ممن ينتمون إلى الكوادر المتعلمة اختارت البقاء في تونس، كشأن العديد من القانونيين والأطباء والصناعيين ورجال البنوك والإداريين والمدرسين.

وما إن نالت البلاد استقلالها حتى تم انتخاب يهودي تونسي في المجلس الوطني التأسيسي سنة 1956، وآخر في المجلس التشريعي الأول سنة 1959 والثاني سنة 1964. كما سبق أن ضمت الحكومة التي تشكلت عشية الاستقلال الداخلي - يونيو 1955 - وزيراً يهودياً، وبالمثل الحكومة التي تشكلت عقب إعلان الاستقلال في مارس 1956.

مكوث رغم عوادي الزمن

لم يبق من يهود البلاد العربية - في الوقت الحالي - سوى بضعة آلاف يتواجدون في المغرب وتونس وبضع مئات متناثرين بين عدة دول. وفي الراهن الحالي يتوزع يهود تونس بين العاصمة (800 نفر) وبين الحارتين الكبيرة والصغيرة في جزيرة جربة (900 نفر)، حيث يوجد معبد الغربية الذي يعود تاريخه إلى ما قبل الميلاد، يتولى تسيير شؤونه حالياً رئيس الطائفة اليهودية بيريز الطرابلسي؛ في حين يقطن الباقون في مناطق الساحل التونسي بين مدن جرجيس وسوسة والمنستير والحمامات.

ويسهر على الشأن الديني ليهود تونس حاييم بيتان كبير الأخبار، يعضده أربعة كهنة، يسهرون على شؤون باقي الجماعات اليهودية. كما يملك يهود تونس إحدى عشرة بيعة، البعض منها لا تفتح أبوابها لزوارها إلا في الأعياد والمناسبات، على غرار كنيس الغربية الصغير بمدينة الكاف. ويتركز جلّ النشاط التربوي والتعليمي بين جربة وتونس العاصمة. توجد في جربة محضنة يؤمها الأطفال إضافة إلى مدرستين ابتدائيتين وثانويتين، ويشيفا - مدرسة دينية - يُلقن فيها الصبية مدونتي المشنا والجمارا. كما

تتواجد مدرسة ابتدائية وبيعة في مدينة جرجيس الساحلية القريبة من جزيرة جربة. وتملك الجالية اليهودية دارين للمسنيين. لكن تركّز العدد الأكبر من مؤسسات التعليم يبقى في العاصمة تونس: ثلاث مدارس ابتدائية وثانويتان ويشيفا.

الحالة في المغرب اليوم شبيهة بالحالة في تونس، فمنذ فجر الاستقلال حرصت الحكومة المغربية الأولى والثانية على ضم وزير يهودي إلى صفوفها، تولى تلك المهمة حينها ابن زاكين، وتتابع ذلك التقليد عبر تقريب يهود مغاربة من الدائرة الضيقة للحكم، حيث تولى سيرج برديفو مهام وزارة السياحة وانتخب سيمون ليفي - الأستاذ سابقاً في كلية الرباط - عضواً في مجلس النواب، كما شغل أندري أزولاي منصب مستشار الملك محمد السادس في الشؤون الاقتصادية. اتخذ المغرب قراراً مهماً سمح لليهود بحق استعادة الجنسية المغربية وتخلّى عن إسقاط الجنسية عن يلتحقون بإسرائيل.

لم يبق من يهود البلاد العربية - في الوقت الحالي - سوى بضعة آلاف يتواجدون في المغرب وتونس وبضع مئات متناثرين بين عدة دول

في الراهن الحالي يتوزع اليهود المغاربة على كبريات المدن: الدار البيضاء ومراكش والرباط بعد أن كانت مدينة الصويرة تضم أكبر تجمع يهودي في المغرب؛ حيث كانوا يتوزعون

بين الملاح القديم والملاح الجديد. غدت أحياء الملاح في المغرب والحارات في تونس معالم سياحية لا غير بعد أن كانت تعجّ بساكنيها، ولم يبق من جملة البع اليهودية المنتشرة في المغرب - حوالى 33 - سوى عشر منها فتحت أبوابها لروادها وتقام فيها الشعائر. كانت إقامة متحف اليهودية المغربية - على تواضعه - من المبادرات الرمزية الفارقة في العناية بالثقافة اليهودية في البلاد العربية. هذه المبادرات التي اتخذها المغرب لم تشفع إلى حد الآن في استرداد ثقة اليهودي، أو في إغرائه بالإقامة الدائمة، وإن نجحت في دغدغة رغبة التسوّح لديه.

